الانسان اللبناني

هل من كلام علمي على الانسان اللبناني مادة يصنع منها الوطن ام نحن ككل الشعوب المشرقية وغيرها؟ اظن ان كلامنا على لبنان تصور لعيوبنا وجمالاتنا ولعل كل واحد متأثر بخبراته، بصدماته وحزنه وبالحسن الذي يراه حوله فيعمم حكمه. حسباني اننا لا نقدر ان نرسم صورة متكاملة عن انساننا ما لم تقم دراسات ميدانية نفسانية ومجتمعية نبني عليها سياسة، ما من شك في ان ثمة علما اقتصاديا متقدما، مع ذلك لا ينعزل الاقتصاد عن السياسة منطلقا او منتهى.

غير ان الواضح عندنا ان العلماء شيء وان الافادة منهم شيء آخر. وبعامة، المجتمع شيء والدولة شيء. في البلدان الراقية هناك تماس بين الاثنين وتفاعل. تتلقى الدولة تأثير الناس وينفعل المجتمع بالدولة. فاليها ينتقل الفكر وهي تحيا بعقل الناس. ذلك ان جدية الحكم تدفعه الى توسل الطاقات المعرفية في القوم. ويبدو لي ان الدولة عندنا ليست على تلاحم كبير مع القدرات العلمية والتكنولوجية وانها ميكانيزم قائم بنفسه بسبب من الشخصنة الرهيبة للعلاقات القائمة بين السياسيين اذ يلوح لي ان هؤلاء يستخلفون آخرين ينتمون الى الجسم السياسي القائم بنفسه وكأن ثمة وجودا سياسيا وآخر مجتمعيا – ثقافيا وكأنهما خطان متوازيان لا يلتقيان الا في القدر.

فالسلطة عندنا متعة ولو تمنى الكثيرون ان تصبح خدمة او رسالة. وان انشغل بعض في الحياة العامة عن مثالية ألهمتهم تتأكلهم الآلة السياسية بعد حين او ييأسون من طغيان الفارقين في السياسة المستفحلة. ما يمكن تبنيه ان الاقنية بين حياة الفكر والاحتراف السياسي مصابة بشيء من الانسداد. لعل الكامن في العقل اللبناني ان السياسة ليست حكم المدينة كما يدل على ذلك الاشتقاق اليوناني منذ افلاطون وارسطو ولكن في العربية "السياسة فعل السائس يقال: هو يسوس الدواب اذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته" (لسان العرب). اللغة عندنا تقول ان ثمة فئة جالسة فوق والناس رعاياها همها ان يستكينوا اذا تيسرت لهم سبل العيش او لم تتيسر واستكانة الناس عندنا قائمة على اقتناعهم ان الدولة ناس يؤثرون المتعة على الخدمة. والدولة في العربية ما يدول اي ما كانت طبيعته عابرة في حين ان عند الاوروبيين الدولة ما يبقى(Etat, State, Staat وكلها تعني البقاء.

وليس ادل على ذلك من هذه الخضة الانتخابية الجارية اليوم التي غايتها الوصول على عاتق جماهير بلهاء ليس مطلوبا وعيها وليس مرغوبا توعيتها لأن هذا من شأنه ان يفسد ميكانيزم السلطة واستمرارها واستخلافها. غير ان الحديث عن الانتخابات اخذ يقزز جميع الناس الذين فهموا، مرة ولا كل مرة، انهم عاجزون عن التغيير فانهم لا ينتظرون ان يأتي سحر الساحر او قدرة القادر فلا يتعلقون الا باولادهم ومعاشهم لانهم واثقون من ان ليس عندنا تركيبة بقاء. فالفعل ليس عندنا فعلاً شعبياً ولا فعلاً نخبوياً. ان الابواب موصدة.

* * *

مشكلتنا تتجاوز كونها مشكلة مع السلطة القائمة. هي مع كل سلطة اتت حتى اليوم ليس لأنها فاسدة بالضرورة في جينات القائمين عليها. مشكلتنا هي مع وعي السلطة نفسها.

وما يزيد الطين بلة ان شعبنا فقير وان معظم الذين سيصلون الى الحكم ليسوا فقراء. ليس عندهم سلفاً آذان صاغية. فكيف يتحسس ازمة السير صاحب السيارة الفخمة والذي تواكبه دراجات نارية تفتح له الطرق؟ كيف يتحسس مشكلة الطالب الفقير من ارسل اولاده الى أعلى الجامعات الخاصة؟ وقس على ذلك. تترسخ افهومة السلطة – المتعة لكون المال متعة. خطر المال كثير عند حائزيه لأن منطقه ان يزداد. كيف يعف عنه اليوم من لم يكن عفيفاً في امتلاكه؟ فالمال يغذي شهوته عند صاحبه ويستشعره بأهميته وفاعليته. ولكن لا تقوى الفاعلية بلا اشتراك في الحكم. المسرى الطبيعي للغنى ان يحكم والمسرى الطبيعي للحكم ان يستغني ويستقوي بالاثرياء في جمهوريات الموز.

ولهذا كان المنطق الصحيح عند افلاطون في "الجمهورية" ان يأتي بالفلاسفة الى حكم المدينة. بلغة اليوم هذا يعني ان يؤتى بالعارفين القادرين على الزهد. ان شهوة المال متحكمة في النفس البشرية. تتشهى باستمرار وهكذا لا تنظر الى البشر الا بكونهم يزيدون قدرتها.

واذا تجاوزنا جدلية العلاقة بين الدولة والمجتمع كما تلعب في العالم الثالث يبدو لي الانسان اللبناني بعامة ميالاً الى استعمال الآخر. ماذا ينفعني هذا وماذا ينفعني ذاك، كيف اصل من طريق هذا او من طريق ذاك؟ كيف اصل، هذا هو الهاجس وبتعبير ابسط اين منفعتي المادية وماذا يقودني الى السلطة اياً كان صعيدها؟ ما من شك في ان هذا مرتبط، الى حد بعيد، بكوني مقتنعاً ان حقوقي لا تؤمنها لي الادارة اياً كان صعيدها وانه يجب ان اكون من القبيلة لكوني لا اثق بالدولة حامية الضعيف ولا اثق بعدل يقضي بيني وبين غيري لايماني بأن العلاقات عاطفية لا موضوعية بين الناس وان المبادئ تصدقها قلة من الحالمين يفرح الناس بسذاجتهم كفرحهم بالفردوس المفقود. ليس ان الناس عندنا ضد المثل ولكنهم لا يصدقون انها نزلت علينا لتعاش وتسوس هي الناس.

هناك طلاق غريب بين المثل العليا والحياة العادية. هذه "واقعية" اي قائمة على الخطيئة وعلى المرء ان يجد لنفسه منزلة في عالم الخطيئة لا تكلفه اثماً عظيماً ولكن لا تكلفه ايضاً جهداً عظيماً. اما ان يكون الله هنا في وسطنا وان نسكن الى كلمته لنحيا في نسيج هذا العالم فأمر يضحك الناس. اللبناني متروك لنفسه. والفقير متروك في طائفته او ليس له كلام فعّال فيها او لا يلتمس رأيه. هذا لا يزال بلد اعيان كما كانت تسميهم الدولة العثمانية التي كانت تعرف نفسها بالدولة العلية لكونها اعلى من الرعايا. الناس اولاد في هذه الرؤية والجالس فوق اي السلطان يحضنهم حضناً ويحميه عسكره. يحميه من الرعايا.

* * *

الحماية ليست مقولة اخترعها المستعمر ولاذ بعض المواطنين بها. هي نتجت من كون الدولة العلية كانت معادية لشعوبها. فامتدت مقولة الحماية الى كل نطاق، الى الطائفة، الى العشيرة لأن الدولة العلية ثم دولة الانتداب رسخت فردية الانسان عندنا لكونها اهملته. طلب المواطن حماية سببه الفراغ الذي هو ملقى فيه. الدولة لم تكن تتفاعل مع الوجود الاجتماعي حتى يحس بها المواطن ملاذاً له. يسعى، اذ ذاك، الى كيانات وجود اقرب اليه بسبب من الدفء الذي تعطيه. الدفء تعويض لفقدان العدل وغياب المساواة ولترسيخ الانسان في ضعفه، في اغترابه.

الطائفة نفسها اليوم ما باتت على تلك الفاعلية القديمة وقال لها العقائديون ان رعايتها لافرادها ضد العلمانية ولكنهم لم يجدوا علمانية. بقي فراغ الطائفة اجتماعياً ولم تأت الدولة. ظهر الزعيم الجديد الذي ليس في حقيقته امتداداً لطائفته وليس محوراً في الدولة. اللبس الحاصل ان الزعيم يأتي به النظام من طائفة ولكنها ليست هي التي تأتي به في اكثر الاحيان وما هو مدين لها بظهوره وفعله. المسيحيون في كل حال ليس عندهم زعماء طوائف. الطوائف الاخرى متعددة القيادة. الواقع المجتمعي ان هناك طائفة الزعماء الجالسين في موقع المال وتالياً في سلطة جماعية تجمعهم. همروجة الانتخابات تظهرهم موجودين بقوة نفسهم وبقوة من يحميهم وبهذا الزخم الرهيب الذي هو زوال الديموقراطية. والناس رعايا، جزء من ميكانيزم مفروض عليك.

قد تقضي السياسة باقصاء هذا وذاك في ظرف محدد. هذا من الجزئيات. الحركة العامة في تثبيت طائفة الزعماء. وتالياً الكلام في الطوائف على صعيد الفعل التاريخي – السياسي لا اساس له. من هنا انه لا بد من ايجاد مجتمع جديد وتفعيل الطاقات كلها تتأثر بها الدولة. الانتخابات على اساس طائفي غدا امراً شكلياً فلا الطوائف تتكلم ولا الطوائف تنتخب واذا بدا عن هذه الطائفة او تلك شيء من التراص فهذا بحكم تركيبة سياسية عليا تستحب صمت الناس وان يؤبدوا الزعامات الموضوعة التي تستخلف نفسها ولا تجدد ولا تتجدد.

الاعجوبة اللبنانية لم تحدث بعد. البلد لم يولد. الحضارة السياسية لم تدخل الينا بعد. التغيير بمعناه العميق لم يحدث. هذا الانسان اللبناني متى ينزل الله والفهم عليه؟

المطران جورج خضر